داود الفريح

ساعة مقتل الفئران

رواية قصيرة

NOVELLA

بطاقة الفهرسة

813 / 90563

ف الفريح، داود

ساعة مقتل الفئران / داود الفريح

بغداد : منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق، 2023.

66 ص ؛ 21×14 سم

- القصص العربية / العراق

م.و.

/ 2023

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

الطبعة الأولى 2023

رقم الايداع ( ) في دار الكتب والوثائق ببغداد لسنة 2023

ISBN: 978-9922-719-21-4

اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق - بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو اعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب ورقيا أو رقميا إلا بإذن خطي من الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher. This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

التصميم: نصير لازم

داود الفريح

ساعة مقتل الفئران

رواية قصيرة
NOVELLA

2023

الإهداء:

الى البطل الحقيقي لهذه الرواية (ريان)

السادر في الألم

بِذور

في أرض خربة

-١-

مرّت على باله الذكريات المليئة بالألم...

منذ أن كان "ريان" طفلاً يعيش المذلة في ذلك البيت المهر من الخارج، والمنخور من الداخل، بكل ما فيه من قرف، وسرير أمه اللعين في مخدعها، يذكره بالمآسي واحدة بعد الأخرى، حتى شاهد صورة الحياة، وأصبح ظلام الخطيئة قاتماً، فترسب في قلبه الغل حتى ساعة مؤجلة، فطال أقرب الناس منه، وطاله الضياع هو الآخر.

كان أبوه القميء "جاسم" موظفاً مهماً في دائرة من دوائر الدولة، يحب السفر المجاني والإيفاد، يمتاز في تعامله بالمبدأ الميكافيلي من أجل التسلق على أكتاف الآخرين للوصول إلى منصب أعلى، والحصول على مردود مالي، لم يكن ذلك خافيا على صديقه وجاره "خالد" الذي يعمل معه في نفس الدائرة، ويزوره بين الفينة والأخرى في بيته مع زوجته، التي تربطها قرابة مع جاسم، ولم تكن هذه فقط، إنما كانا يشتركان في الملامح القبيحة، على النقيض من خالد الذي كان رجلاً وسيماً، وكذلك كانت زوجة جاسم امرأة جميلة طاغية الأنوثة, لكن أقدار الدهر شاءت أن يكون القبيح للجميلة، والوسيم للقبيحة.

كان خالد قد اشترى من جاسم البيت المجاور لبيته، وفضلا عن أن امرأته دميمة الوجه, فقد كانت تكبره بخمس سنوات، وذات أصول ريفية متحفظة، ولما بلغت الأربعين، عرفت بقراءة الكف والفنجان . تكالبت عليها الأمراض المزمنة، وكان ضعف القلب أخطرها، على النقيض من "أم ريان" فقد كانت شابة متوقدة الإنوثة والجمال، وتتمتع بصحة جيدة، لكنها امرأة لعوب، تحاول دائما لفت انتباه خالد إلى تفاصيل جسدها المغري, كانت

تتعمد حينما تقدم الشاي أن تنحني أكثر من اللازم لتظهر استدارة نهديها البضين. وتكورات جسدها. كان خالد يختلس النظر إليها خشية من انتباه صديقه جاسم, وعندما تلتقي أعينهما، يشعر بأن رغبة جامحة تسح من عينيها، فيكتم في نفسه نفسا عميقا وكأنه يستنشقها هواء في رئتيه

لهذه المرأة قصة معروفة يتحدث بها أبناء الحي, ففي إحدى الليالي بعد أن أوصل "عبود شناوة" "جاسم" إلى المطار الدولي بسيارته التي يعمل بها في نقل الركاب . كان الوقت ليلا، عرف "عبود" من خلال الحديث الذي دار بينهما أن جاسم لديه إيفاد رسمي إلى عمان. فجالت في رأسه الأفكار السوداء التي تشبه بشرته , وراحت تبني أعشاشها.

عاد عبود إلى المنطقة، وقد عقد العزم على أن ينالها, رغبته فيها أعمته وأذهبت عقله، فدخل البيت عنوة في ظلام الليل، طواها بين ذراعيه، ووضع يده اليمنى على فمها كي لا تصرخ، ثم لعبت يده اليسرى لعبتها عندما امتدت أسفل سرتها، ولاعبت رقيق لحمها، فارتخى كل شيء فيها واسقط ملابسها قطعة قطعة، انتهى كل شيء بعد أن توقف أنينها، خرج عبود من البيت مرفوع الرأس، وهي تودعه. لم يكن يدرك "ريان" ما جرى بينهما، ولا يعرف معنى ذلك التأوه الذي صدر عن أمه ووصل إلى حد الصراخ, ولم يدرك مغزى تلك الحركات المتعاقبة بين التقدم والرجوع لتلك الكتلة السوداء التي طوت أمه تحت ثقلها، وقلبتها كيفما تشاء. وهو يسترق النظر في فراشه من تحت الغطاء!

وعندما حاول "عبود" في اليوم الثاني، لم يستطع اقتحام البيت فقد أحكمت إغلاق بابه، وحصنت شبابيكه جيدا. ربَّما كانت تلك غلطة ارتكبتها، ما كانت تظن انه "عبود"، بل ظنته خالد، إلا إنها خضعت لنزوتها العابرة، فجربته.

حاول "عبود" أن يلاطفها ويتودد إليها عندما صادفها في السوق، لكنها أنكرت معرفتها به، وهددته أنها سوف تشكوه في مركز الشرطة القريب، وتقطع رزقه في هذه المنطقة. فما كان منه إلا أن قص قصته على أصدقائه من السمر، فكذبه بعضهم, وبعضهم صدق الأمر, إنما, مهما يكن من أمر فقد انتشرت القصة وشاعت وتناقلتها ألسنة السوء .

إما خالد فكثيرا ما كان يعقد المقارنات بين زوجته القبيحة و"أم ريان" فيندب حظه، ويحسد صديقه . إذ لا يستطيع أن ينكر ما تثيره في نفسه من رغبة جامحة، وكثيراً ما كانت تومئ إليه بذلك من خلال تصرفاتها, حيث تأمر ابنها ريان، قائلة له: سلم على عمك خالد، فيلقي الطفل بالسلام على عمه فيقوم خالد بمبادلتها الفعل وذلك بضمه إلى صدره وتقبيله. تطور الأمر حتى حدثت ألفة بينه وبين الطفل الذي تركه أبوه مهملا, ولم يكن لديه الوقت ولا الرغبة في الاعتناء به, فـ إستغل خالد ذلك وتقرب إليه, وتوطدت علاقتهما حتى ظن الناس ان ريان ابنه هو . فهم لم يشاهدوه ولو لمرة واحدة برفقة أبيه جاسم، كان عذره دائماً أنه مشغول، ليس لديه ما يكفي من الوقت لهذه الأمور التافهة، كان يعتقد ان واجبه فقط هو جلب احتياجات البيت من السوق، وتأمين كل تلك المتطلبات التي تطلبها أم ريان, إما الجانبين: النفسي والعاطفي لولده وزوجته لم يكن يهتم بهما مطلقا .

وفي كل مرة يأتي خالد لزيارة صديقه يجلب معه الألعاب لريان، وكأنه ابنه، وفي الحقيقة إن خالد يشعر بذلك الشعور لأنه لم يرزق بطفل بعد على الرغم من مرور أكثر من خمسة عشر عاما على زواجه, حتى تعلق به الطفل أكثر من أبيه، كان يأخذه إلى المتنزهات في أيام العطل ويسيران على ساحل النهر، كان ريان يسير مسرورا برؤية الماء والزوارق والأطفال الذين يلعبون، كان يرتدي أفضل الملابس وينتعل حذاء رياضيا ذا الماركات المميزة. ويسير خالد وهو يمسك يده الناعمة، ويلبي كل طلباته فيشتري "شعر البنات" ذي

اللون الأحمر الذي يحبه، ويتلذذ بأكله، وهو يذوب في فمه الصغير. ويركب على الحصان الخشبي الذي يدور في اللعبة، وكأنه يطير في الفضاء، يضحك ببراءة وهو يمسك بيده رقبة الحصان.

كانت الفقرة المهمة في هذه النزهات هي النزول إلى النهر والسباحة حتى أتقن ريان السباحة وظل هذا الأمر سراً بينهما، كان خالد يخبئ ملابس السباحة لـ " ريان " في حقيبته الصغيرة, لان أمه لا ترضى أن ينزل إلى النهر، خشية أن يغرق .

وبعد أن يحل الليل يعود به إلى بيته. ووصلت به الأمور انه قبل الأعياد والمناسبات، كان هو من يشتري له الملابس الجديدة الملونة، فيفرح الطفل فرحاً شديداً بها، يضعها طوال الليل قرب رأسه، وحينما يأتي الصباح، يرتديها، فيبدو وسيماً أنيقاً . ثم تقوم أمه بعد ذلك بتنظيفها وحفظها في خزانة خشبية مثل "صندوق من خشب السيسم"، وضعته أمه قرب سريرها حيث يعد هذا الصندوق تحفة تراثية، فيه فتحات للتهوية قرب حافاته العليا، ورثه ريان من جدته بعد موتها.

كان أبوه "جاسم البخيل"– وهذا لقبه المعروف به بين الناس ، لا يأنف من تصرفات صديقه، حتى اعتراضه يكون ضعيفاً، فهو لا يريد أن يفصح عن موافقته، ولا يبدي اعتراضه, كأنه قد تواطأ مع نفسه على السكوت والقبول بما يجلبه لابنه، أما الأم فقد كانت تطري على خالد وتشكره، وتقول: "أنت لم تعد عمه فحسب بل أصبحت أباه الحقيقي. فيرد خالد بسرور: إنه أبني، انه جميل وأحبه كثيراً. وينظر إلى وجهها، فتنفرج بسمة خبيثة على شفتيها. كانت أمه تستقبله بلهفة، وتقبله على جبينه، وتقول: ابني "حبيبي"، آه لو تعلم كم أحبك، أحبك بمقدار الدنيا، ليس لي حبيب سواك.

يودعهما خالد ويذهب إلى بيته، فلا يجد عند زوجته غير الأنين والشكوى، والمشادات الكلامية، واللوم الذي تكيله لاهتمامه المفرط بـ" ريان "، وإهماله لها، وتلمح له أنها تخشى من هذا الاهتمام أن يمتد لـ أم ريان زوجة ابن خالتها جاسم. فيرد عليها: نحن عائلة واحدة لماذا هذا الظن السيئ، فتجيبه وقد علا نحيبها

.أنا أحبك وأخاف عليك.

فيظل صامتاً يسخر في نفسه من هذا الحب الذي تعلنه زوجته، فقد فات زمانه، فهو لا يرى فيها غير القبح والقيود.

(٢)

بدأ ريان يجهز نفسه لدخول المدرسة بعد أن تأخر عاماً كاملاً بسبب رغبة أمه, لم يبقَ إلا شهرا واحدا عن بداية الدوام. وقد استعجل خالد وجلب له مستلزمات الدراسة كاملة . في تلك الفترة كان ريان لا يعي، أو لا يهتم بدخول خالد إلى بيتهم، وأحيانا كانت أمه ترسله لاستدعائه لسبب أو لآخر، وحينها كان خالد يمنحه المال كي يذهب ويشتري ما يحتاجه من السوق القريبة، فيظل يتسكع في الشوارع. وأحياناً يضايقه بعض الأطفال ممن هم في سنه، ويسخر منه الأكبر سنا . لم يكن له صديق بينهم، وكان يتفاداهم ولا يشتبك معهم في عراك، حتى تنفد نقوده، فيعود إلى بيته راضياً.

ورث " ريان " القليل من ملامح أمه، كان طفلاً ابيضا ناعماً رقيقاً مدللاً بالنسبة لأطفال الحي الشعبي الذي يسكنه، وكانت محبة أمه وخالد تكفيانه، ولا يجد الأمان إلا عندهما، على عكس شعوره نحو أبيه، لقد أسرف خالد في تدليله، لكن الحياة لم تكن تحنو عليه مثل خالد، وكذلك الناس والأطفال أقرانه أيضاً، لم يتعلم الاعتماد على نفسه، ولا يعرف كيف يتصرف لو اضطرته الحياة للمواجهة.

عندما خرج ذات مرة من البيت واشترى "الآيس كريم" من محل المرطبات القريب من بيتهم، فهو يحب "الآيس" و"شعر بنات" وكوكا كولا، أوقفه ابن عبود شناوة قائلا:

- هل معك نقود؟

أجاب بكل براءة:

- لا .. ما عندي، مصروف اليوم اشتريت به "آيس".

نهره الولد قائلاً:

- لا تكذب، متعلم على اللحس ابن أم ....

وبعد أن أخذ "الآيس"من يده، قال مهدداً إياه:

- غداً تعطيني النقود، وإلا سأقوم بذبحك.

خاف من تهديد الولد، ولم يفكر في مواجهته، بل أشار برأسه صاغراً، وغادر مسرعاً مرعوباً إلى بيتهم، لم تكن لديه الجرأة ليخبر أمه، أو يخبر خالد بما جرى . لكنه فضل ألا يخرج غداً وحده، مهما يكن . فهذا الولد الخبيث لن يعتقه.

كان " ريان " جباناً، لكنه ما يكن يخاف من الفئران، عندما يرى فأراً في بيته، يقوم بمطاردته مستمتعا، وأحياناً يساعد أمه في وضع السم في زوايا البيت من أجل القضاء عليها، حتى وصفته أمه بـ"صائد الفئران".

بعد كلام ابن عبود شناوة، صار ريان يخاف الخروج من البيت، وبدا منطويا على نفسه، وحينما لاحظت والدته ذلك سألته

- ما بكَ .. يا " ريرو"؟

أجاب:

- لا شيء.

لم يقنعها جوابه، لكنها تركته إلى وقت آخر يكون فيه مرتاحاً كي تستفسر منه.

في ذلك المساء الصيفي الخانق، وبعد أن نهض "جاسم" من قيلولته، وهو يتأفف من شدة الحر، وضيق الوقت، دخل إلى الحمام، لعل جسمه يحظى ببعض البراد، لكن الماء كان ساخناً، وبالكاد أستطاع تحمله، اندفاع رذاذ الماء من "الدوش" الذي ساعده على تحمل لساعته، وقد سال الصابون على صلعته، وكرشه المتقدم مثل صلعته الكبيرة.

وضع ملفات عدة على منضدة قرب باب الصالة الصغيرة، وبعد أن جلس، على كرسيّ أمام المنضدة، عدل نظارته وفتح ملفاً، طلب من زوجته

أن تحضر له الماء والشاي . كان "جاسم" يرتدي "فانيلة" سوداء وسروالاً أخضرَ يصل إلى الركبة، قد جلبهما حينما سافر إلى عمان العام الماضي.

أحضرت الزوجة الشاي, وضعته على المنضدة أمامه، ووقفت إلى جوار المنضدة، كان من الواضح أن لديها كلاماً كثيراً لتقوله، صمتت قليلاً, ثم قالت :

- تفضل .. الشاي.

لم يرفع عينيه عن الملف. قال:

- .. "أين ريان "؟

- إنه نائم. اليوم تسأل عنه، الولد يحتاج إلى رعايتك، لا أدري ما أصابه اليوم، لا تعجبني حالته.

- ألم ترِ، كم أنا مشغول، لدي الكثير من العمل، وخالد كل أسبوع يأخذ إجازة، لا يساعدني في العمل، لا أدري أين يقضيها، ربَّما لديه عمل آخر مهم يقوم بإنجازه في يوم إجازته، غداً هو مجاز، وأنا في مطلع الأسبوع المقبل لدي إيفاد، والعمل لا ينتهي.

"حسنة" موظفة مخلصة تؤدي واجبها ولا تأخذ إجازات كثيرة مثل خالد . وتساعدني في إنجاز الأعمال كثيراً.

جلست على الأريكية وتركت ثوبها ينحسر بين فخذين أبيضين كالمرمر، لكنه لم يولِ الأمر أهمية، وتابع عمله غير عابئ بالنار المستعرة في جسدها, وقالت بغضب:

- أنت لا تبدل طبعك...العمل ليس أهم مني ومن الطفل.

- عندما يصحو" ريان " من النوم سأكلمه، فهو لم يعد صغيراً.

لم يعجبها الكلام، مطت شفتيها، ثم ذهبت إلى المطبخ المفتوح على الصالة الصغيرة لتعد العشاء. شغلت المذياع، كان صوت عبد الحليم حافظ عالياً يأتيه "نار يا حبيبي نار". صاح بها.

- اخفضي صوت المذياع. لا أستطيع التركيز، لدي الكثير من العمل، وأنت لا تهتمين.

لم تعره أي انتباه، وعندما أشعلت "الطباخ" لسعت يدها النار. لكنها ظلت تغني مع عبد الحليم حافظ، "نار يا حبيبي نار". وتتمايل، وتهز ردفيها، وصدرها الناهد كما يحلو لها، وكأنها اكتوت بالنار. نعم إنها اكتوت بنار الشوق.

كان بودها من يداعب برقة مؤخرتها، التي فتحها لأول مرة "عبود شناوة"، إنها مؤخرة تفوق بتكورها على الكثير من مؤخرات الممثلات المشهورات، ولو طلب خالد منها ذلك غداً، سوف لن تصده هذه المرة . ستمكنه منها في أحسن وضع يروق له.

(٣)

أدركت ما سيكون لها يوم غد، كان عليها أن تجهز نفسها، وتعد عدتها، غداً سيكون يوماً غير عادي في حياتها, خالد مجاز. وجاسم مشغول في موضوع إيفاده وانجاز ما عليه من أعمال وظيفية لكن حال " ريان " يقلقها، ثم تخلصت من شكوكها، إنه طفل، مثل كل مرة سوف يأخذ النقود من خالد، ويذهب يلعب ويشتري، وقد يتسكع بعض الوقت.

كان ذلك في صباح اليوم الثاني من الاسبوع الأول من أيام أيلول، مازال الجو حاراً، والشوارع مازالت متربة، والسوق مزدحم بالمتسوقين، سيارات الأجرة تقف منتظرة من يحتاج إلى نقله .

لم يكن دخول بيت جاسم من الأمور الصعبة بالنسبة إلى خالد، فصِلة القرابة بين زوجته وجاسم، أوحت للجيران أنهم عائلة واحدة. ما عليه سوى أن يطرق الباب الذي تتركه أم ريان مفتوحا طرقات خفيفة، ثم يدفعه قليلا فيدخل، هكذا كان خالد رجل البيت.

في هذا اليوم لم يكن " ريان " يرغب بالخروج، كان يخشى أن يراه الولد الذي هدده، وتظاهر أنه خارج من البيت، فذهب إلى غرفة أمه خلسة، واختبأ في ذلك الصندوق ، ظن خالد وأمه أنه خرج كعادته، هكذا عادت القصة اليومية نفسها، لكن اليوم بوجود ريان!.

كان جسد ريان صغيرا ومرنا، يبدو بملابسه الرياضية "التراكسوت" مثل لعبة مطاطية، مما سهل عليه الحركة داخل الصندوق، فهو يستطيع أن يرى كل ما يدور في الغرفة من خلال الفتحات الصغيرة الموجودة فيه.

تخلص " ريان " بهذا الاختباء من مواجهة ابن عبود شناوة الشقي، لكنه لم يكن يعرف انه أمام مشهد سيغير حياته كلها, ويرسم أيامه القادمة بلون قاتم, لكنه القدر ولم يكن يملك أن يغيره .

دخلت أمه الحمام، وأزالت بقايا شعر جسدها، ثم استحمت، وتنشفت، ومسحت مناطق من جسدها ببودرة معطرة، وكأنها تلتقي خالد لأول مرة.

كان خالد متحمسا يستعجلها كي تخرج من الحمام. نادته:

- حبيبي ادخلْ الغرفة دقيقتين وأكون في أحضانك.
- لا تتأخري .. يا حياتي، ما عدت أحتمل .

دخل خالد قبلها الغرفة، وأخذ يخلع ملابسه، رأى " ريان " صدره المشعر، حسبه مثل قرد، ثم دخلت أمه ترتدي ثوباً شفافاً من غير ملابس داخلية. مد خالد يده امسك يدها، وقادها إلى السرير، وهو يقبل عنقها. ثم ألقاها فوقه، ووقف أمامها وفتح رجليها، حينها، رآه ريان وحشاً آخر.

كانت وهي تهتز تحته تطلق الـ آه بعد الـ آه بصورة متقطعة، وهي تشد ظهره إليها، بكلتا يديها ويرتفع صوتها حتى يصبح صراخاً، وكأنها تريد أن تستمر إلى ما لانهاية بصراخها وهي غارقة في لذة حمراء ثم تعود لـ آآه طويلة متراخية، فيرتخي كل شيء فيها، بعد دقائق معدودة تسرح في حالة استرخاء ممزوج بالرضا، يبتعد خالد عنها وهو يقبلها، ثم بعد فترة تعاد الكرة نفسها.

منذ اليوم الأول لزواجها, لم يكن جاسم قادرا على إطفاء لهيب جسدها، كما يفعل خالد، لم تكن تشعر بشيء، حتى أنها لا تستطيع أن تطلق آهاً واحدة معه حتى ينتهي كل شيء، ما كانت تحصل على لذة في تلك اللحظات الحميمة. كانت تقول لـ جاسم بعد كل مضاجعة من مضاجعاته القليلة.

- إنك تعذبني، ويبقى رأسي يؤلمني.

لكن زوجها ما كان يدرك معنى ما تقوله، كان يفعل ذلك كمن ما يؤدي واجباً ثقيلاً فُرض عليه.

بدأ يدرك " ريان " ما يحدث، فقد شاهد كل شيء، كل الحركات المتشابكة، وسمع كل الكلام والتنهدات والفحيح . وعرف أن هذا ما كان يحدث في كل مرة عندما يعطيه خالد النقود ويطلب منه الخروج . لم يكن طفلاً غبياً . منذ هذه اللحظة ولم يعد خالد بمثابة أبيه، بل إنه الوحش.

أشتد المرض على زوجة خالد، طلبت شيماء من جاسم، أن يزور قريبته، فالتواصل مع الأرحام مطلوب، ولاسيما إن حالتها لا تبشر بخير، أعدت لها الحساء، فأكلها أصبح قليلاً . في المساء طلبت شيماء من ابنها " ريان " أن يذهب بصحبتها، في البداية رفض الذهاب، لكنها أجبرته، وأخذته معهما.

اتضح خلال الزيارة ان ريان لم يعد ذلك الطفل الهادئ الودود، بل أصبح مشاكساً على غير عادته، وحينما طلبت أمه منه أن يسلم على "عمه"

قال:

- إنه ليس عمي، إنه الوحش.

أصابتها ريبة مما قال، لكنها تفادت الحرج

وقالت:

- إنه حلم البارحة بالوحش.

أدرك " ريان " أن أمه تكذب، فهو لم يحلم، إنما حقيقة رأى الوحش كيف يفترس أمه، وهي تصرخ من اللذة الحمراء.

ضحك الجميع، حتى زوجة خالد تحاملت على نفسها ضحكت، ثم قالت:

- يقول الأطفال الحقيقة، أنا أعرف الناس بـ ريان.

غيّر ريان جلسته بعد أن طلبت منه أن يكون قربها، وبعد أن أمسكت بكفه وتطلعت في طالعها. قالت:

- يا ولدي ... وأنت طفل رأيت وحشاً، سترى في حياتك الكثيرين منهم، وأشدهم وحشية هم الأقرب إليك وتعرفهم. احذر من النهر، فقد أخذ الكثير الكثير من الناس. واكملت قائلة

. يا "صائد الفئران"، قدرك أن تصيد الفئران.

كأنها تتنبأ لـ " ريان " وتكشف أخاديد حياته القادمة، ما كانت منجمة، ولا مشعوذة، ولا قارئة فنجان، بل كانت امرأة مرّت عليها تقلبات الزمان، بخيرها وشرها، مذ كانت عند أهلها وبعد زواجها من خالد.

قال خالد:

- اتركي الطفل، لا تفسديه بأفكارك اللعينة. أنتِ ترين صوراً خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة لا من قريب ولا من بعيد. اذكري ربك واطلبي منه الشفاء.

قالت:

- لا تستعجل الأمور، إن يومي قريب.

رفضت زوجة خالد أن تحتسي الحساء، لديها شكوكها، فقد كانت تخاف أن يتم الخلاص منها بطريقة أو بأخرى، لكن إلحاح ابن خالتها عليها جعلها تقبل بالقليل منه.

قائلاً:

- عليك أن تأكلي كي يصبح جسدك قوياً, ويقاوم المرض، ونراك بصحة جيدة عما قريب.

مرت الزيارة سريعاً، وكأن شيئاً لم يكن قد حدث في الصباح، كان خالد و شيماء مطمئنين لما يقومان به من خيانة مزدوجة، وسيكونان أكثر اطمئناناً، عندما يسافر "جاسم" الإسبوع القادم، بإمكانهما أن يستغلا الليل، حين يغط ريان في النوم العميق.

(٤)

سعير الشبق الذي أصاب "شيماء" لا ينتهي، ربَّما هي لعنة، أو بسبب زوجها "جاسم" الذي أهملها ولم يستطع ان يجاري انوثتها المفرطة، لكن خالد طوعها، وعرف كيف يطفئ سعيره، إنما، تماديها خلف كارثة ستظل آثارها قائمة .

لقد جاء قِطافها مرّاً. مهما كانت الحسابات منطقية، فقد فاجأتها الحياة بما هو ليس في الحسبان، ولو بعد حين.

فمجرى الحياة وتصرفات البشر ليست مسألة حسابية في الجمع أو الطرح، تتجلى في معادلة معلومة الأطراف، دقيقة النتائج، ويمكن تصحيح الخطأ فيها، بل هي عوالم عميقة، لا يظهر منها إلا القليل، وقد تكون عصية على الإدراك، لكن أخطاءها قد تكون مدمرة

لأول مرة في حياة "جاسم" يوصي امرأته خيراً بـ " ريان " لأنه لاحظ تغيراً واضحاً في تصرفاته، فقد طلب إليه أن لا يسافر ويتركه وحده، لكنه رد عليه:

- هنا .. لديك أمك التي تحبك، وتحبها.
- أريدك أنت أن تبقى معي.

ضحك "جاسم" وقال:

- لا يمكن، لدي سفرة مهمة، ثم لديك عمك خالد الذي يحبك أيضاً.
- لا انه لا يحبني، إنه وحش.
- لا تبق تفكر في الحلم، سبعة أيام وأعود إليكم.

قبل ذلك اليوم المشؤوم، شعرت "أم ريان " إنها لا تطيق صبراً على بعد خالد، تريده كل يوم معها، هي التي أمرته أن يأخذ إجازة طيلة فترة إيفاد زوجها كي يعاشرها باستمرار . لمّحتْ له أنها لا تستطيع أن تبقى بعيدة عنه، تريد أن تبقى إلى جواره العمر كله، وافقها خالد على ما تقول، ووعدها أنه سيجد حلاً نهائياً لهما.

سبعة أيام جديدة يغيب فيها جاسم ... سبعة أيام بلياليها سيصفو الجو لـ لشيماء وعشيقها خالد.

هذه الليلة الأولى من الليالي السبع الموعودة التي سيعيشانها بكل لذة حتى يجد خالد الحل ليبقياهما طوال العمر معاً، فهو لم يعد يرى في هذه الحياة من النساء غيرها، كم مرة حاول تركها منذ غوايتها الأولى إلى الآن، ولم يستطع الابتعاد عنها، أو مخالفتها، قوة غريبة تدفع به نحوها، تسحقه وتحطه في الدرك الأسفل من الضعف، حتى أيقن أنها قدره، وهو قدرها. كان يفكر كيف تكون شيماء له وحده، لا يشاركه فيها رجل آخر، وهو لها ولا تشاركها فيه امرأة أخرى ، لكن لم تتبلور في عقله فكرة محددة لحل هذه المعضلة.

كاد غريبا على خالد ان تتمنع شيماء وتبدي دلالاً وغنجاً كالعذارى, قدمت له كأسه التي يحبها، "جاك دانيالز" احتساها بشراهة، حتى خشيت أن يحتسيها هي الأخرى، وبعد الشراب أشعلت له سيجارة. وهو يأخذ نفسا عميقا ويدفعه بنهم إلى الأمام

قال:

- أراك مضطربة هذه الليلة، ما الذي تغير؟

اقتربت منه بدلال

وقالت:

- ما عدت أتحمل، لا أنال منك سوى الوعود في الليل، وفي الصباح لا أجد بيدي غير الفراغ.

- لقد فكرت كثيراً بحالنا، لا يوجد حل غير الخلاص من "جاسم" و"سعلوتي".

قالت باستغراب:

- هل جننت؟ .. هل تريد قتلهما؟ هذا الأمر صعب، سوف يضّيع حياتنا أيضاً.

- لا ... أنا لا أفكر هكذا.

- قل لي إذن .. كيف تفكر؟

- أرى أن الخطوة الأولى، أن تطلبي الطلاق من "جاسم".

- كيف أطلب الطلاق منه؟ لا يوجد مبرر بالنسبة له، هل أقول له اني لا أحبك بل أحب غيرك، أو لي عشيق. بما تفكر؟ أنسيت في أي بلد نحن، وفي أي مجتمع نعيش؟

- لا .. ليس هذا قصدي.

- ما هو قصدك؟

- قصدي، نغصي عليه حياته حتى يلعن اليوم الذي ورطته أمك بالزواج منك. فيضطر عندها إلى طلاقك.

- قد لا يفعل.

- أنا أعرفه لن يتحمل ولن يجد غير هذا الطريق.

- وماذا تفعل بـ "بسعلوتك"؟

- سوف أرسلها إلى أهلها لو تطلقتِ من "جاسم"، أو أطلقها أيضا.

بدت الحلول لها شبه معقولة، لكنها بحاجة إلى الوقت، تقبلت الفكرة ما مادامت تصب في مجرى تفكيرها حتى لو كانت قشة في بحر فقد تنقذها من

الغرق، شعرت ببعض الراحة. ثم انفرجت أساريرها، وعادت إلى طبعها مثل كل مرة عندما يحين لقاؤها بخالد .

اقتنعت نوعا ما بكلامه، لكن سيكون لها مخططها، كي تنفر "جاسم" منها ومن الحياة بكاملها، حتى يطلقها، فهي ليست عديمة الحيلة، إنها الشيطان عينه.

كان " ريان " يغط في نوم عميق، ربما يحلم مثلما ما يحلم في يقظته، كيف يتخلص من الوحش، وما هي الطريقة السهلة لقتله. ثم يطارد الولد الذي هدده بعد أن يسترد "الآيس" منه، ويقوم هو بتهديده "إنه سوف يذبحه" إذا مر قرب محل المرطبات، وسيكيل له الشتائم.

قاربت الساعة الواحدة، كالعادة، حملها خالد ودخل بها الغرفة، ألقى بها على السرير، وهي تضحك، وما إن هم بمعاشرتها، بعد أن خلع عنها ملابسها. حتى دفع "جاسم" باب الغرفة وشاهد التحامهما الشبق، سحب خالد جسمه عنها، وقام وركل "جاسم"، بقوة في صدره فسقط على الأرض وضرب رأسه بذلك الصندوق . ولاذ بالفرار مسرعاً وهو يلتقط ملابسه من على الأرض.

بعد ما يقارب الدقيقة استعاد "جاسم" وعيه، وقد أسودت الدنيا في عينيه . تسمر ذاهلاً من هول المفاجأة. انهال على شيماء بالضرب وهو يصيح بها:

- خائنة، أتيت بك من الفقر "يا بنت الخادمة الملعونة"، وجعلت منك امرأة محترمة، أهكذا يكون جزائي.

كانت تبكي وتتفادى ضرباته. وتقول:

- أنت السبب فمنذ أول يوم عرفتك فيه. أنا لا أحبك، ولا يمكن أن أحبك. كانت غلطتي يوم تزوجت منك.

لم يكن يمتلك الشجاعة لقتلها، لذلك قذف بها خارج بيته، بعد أن ألقى عليها يمين الطلاق .

(٥)

كان الشارع فارغاً. فراحت تجرجر نفسها وتحاول أن تستر عريها, فقد طردها من البيت بملابس النوم الفاضحة, تلفتت يمنة ويسرى وأخذت تفكر أين تلجأ؟ كانت تخشى أن يصادفها في سكون الليل البهيم "عبود شناوة" وتحل الكارثة، ففي هذه الحالة لن تستطيع أن تخلص نفسها منه، لا خيار لها فقد ماتت أمها منذ سنين، فما كان منها الا ان تطرق باب عشيقها خالد, وفعلا طرقت الباب مفزوعة، تلقفها وأدخلها البيت لئلا يراها شخص ما. فهو يعرف القصة بحذافيرها، وهو من عاش وقائعها بكل تفاصيلها.

كانت زوجة خالد قد تركت باب غرفتها مفتوحاً، من خلال الضوء الضعيف في الصالة الصغيرة، رأت كيف استقبل زوجها "أم ريان " وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه منتحبة. انفعلت انفعالاً شديداً لهذا المشهد الفظيع، وحاولت النهوض، لكن قوتها لم تسعفها، بكت كثيراً، حتى أغمي عليها

على الرغم من هذا التكتم المخزي، لم يبقَ السر مكتوماً، فالناس لا ترحم ولها ألسنة تتكلم، وأعين ترى.

أصبح الوضع لا يطاق، وتوالت الأحداث التي لم تكن متوقعة، وأصبح العبء ثقيلاً، فقد تشابكت الخيوط وبات الحل عصياً، لم يعد خالد يستطيع التكهن بردة فعل جاسم بعد انفضاح أمرهما أمام عينه، فهل سيقدم بلاغاً للشرطة؟ استبعد خالد هذا الاحتمال، إذ ليس في مصلحة "جاسم" أن يجعل من الفضيحة خبراً على ألسنة الناس.

ولو كان لطليقته أهل للجأ إليهم، وكانوا سيتكفلون بقتلها، لكنه مادام قد طلقها، وألقى بها في قارعة الطريق بما كانت ترتديه من الثياب الفاضحة،

حتى أنه في ثورة غضبه لم يراع ذلك، بل عد نفسه في حل منها، فليتلقفها الجحيم، لم تعد تخصه ولا يعنيه أمرها، ولا يريد رؤيتها بعد أن جلبت له العار. إنه فراق دائم لا رجعة فيه . وحينما قالت وهو يدفع بها إلى الخارج:

- أريد ابني.

نهرها قائلاً

- الكلبة أشرف منك يا ساقطة، ليس لديك أبن بعد اليوم، من اليوم انسيه، وانسِ أنه كان لك رجل وبيت، لا يليق بك إلا الشارع يا بنت الشوارع.

كانت تبكي، وتريد أبنها إلى جنبها، أخذ خالد يخفف عنها، ويعدها أنه سيجد حلاً كي يعيد لها ابنها حينما ينجلي الصباح، فقد قاربت الساعة الآن الثالثة والنصف فجراً . وبات تأثير الخمرة جلياً، إذ لم يعد للعقل والتفكير الهادئ مكاناً في رأسه الآن .

تذكر خالد زوجته المريضة، واستغرب أنه لم يسمع لها صوتاً، فهرع الى غرفتها، كانت تنازع وحدها، لم يبق سوى الرمق الأخير، وعندما ارتفع أذان الفجر بصوت مؤذن جامع الحي، لفظت أنفاسها الأخيرة.

قال خالد مبتسماً:

- هكذا أصبحت الطريق سالكة، قد سارعت في مغادرتها.

موتها جلب راحة البال له، فهذه العقبة التي حلها القدر في الوقت المناسب، كذلك شعرت شيماء أن هذه المشكلة التي كانت تربكها قد زالت . لم يكن موت هذه المرأة قد شكل صدمة محزنة لهما، بل حدث العكس.

قاد خالد عشيقته قرب جثة زوجته، كانت الخمرة قد أخذت منه كل مأخذ، فضاجعها هناك. وحينما زحفت شيماء التي كانت تتلوى كالأفعى اصطدم، رأسها برأس الجثة، لكن ذلك لم يوقظ ضميرها الذي نام طويلاً، وتركها أسيرة نزواتها .

كانت المرأتان جنباً إلى جنب، إحداهما يتلبسها شيطان اللذة, والأخرى يلفها صقيع الموت، وبينهما رجل أفقدته الخمرة آخر ما تبقى لديه من إحساس .
شروق الشمس، ودبيب الحركة في السوق، ووقع أقدام المارة أيقظوا خالد من سكرته، وجعلوه يستعيد وعيه، وينظر إلى جثة زوجته المسجاة، وجسد عشيقته الفاجر الذي يمتد إلى جوارها، نهض وغسل وجهه ليطرد آثار الخمر، فالوقت يداهمه وعليه أن يسرع في الإعداد للجنازة ومراسيم الدفن
.

لكنها لم تعر لها انتباهاً، فهي غارقة في نشوة اللذة، وهذه ميتة باردة، ولا تكون لها ضرة بعد اليوم. قضيا وقتاً ممتعاً، لكن لا يمكنهما الانتظار طويلاً، فهذه جنازة يتطلب الإسراع في تجهيزها ودفنها.
لا شيء يبقى مطموراً تحت الركام، فهذه شيماء بثوبها الأسود تتلقى التعازي مع خالد كان مأتم العزاء بسيطاً، حضره القليل من أقاربه وبعض الجيران من الرجال والنساء، ربما أدرك بعض الحضور شيئا ما، وراحوا متسائلين عن سبب غياب جاسم عن مجلس العزاء لكنه ادعى مغادرته مبكرا بسبب التزامه الوظيفي.
لم يكن من المقبول بقاء خالد في الدائرة نفسها التي يعمل فيها "جاسم"، وإن كان لا يخجل، فقد سقط جلباب الخجل عنه بعد تلك الحادثة الفظيعة. انتقل إلى دائرة أخرى، بمساعدة صديقه له يعمل في الوزارة, فكان هذا الإجراء أرحم على قلب "جاسم". وبقيت معه الموظفة "حسنة" التي لا شيء فيها من الحسن، لكنه سيطلب موظفاً آخر بدلاً من خالد
وجد خالد نفسه عاجزاً عن مواجهة "جاسم" من أجل " ريان " كي يعيده إلى أمه، فهو لا يعلم أين يعيش وكيف يعيش الآن، ماذا يأكل وماذا يشرب؟ هل يسأل عن أمه؟ كان مدللاً والآن أصبح شقياً. فاضطر أن يلجأ إلى

"حسنة" كي تكلم جاسم، مدعياً أنه لم يخالف الشرع والعرف، قال:

- هو طلقها، وأنا أصبحت من دون امرأة، مادام لا يوجد مانع سأتزوجها، فالمرأة مقطوعة من شجرة، وأنت تعرفينها، وتعرفين أمها "رحمها الله".

قالت وهي تتلفت في كل الجهات خشية أن يراها أحد من الموظفين، وعلى وجه الخصوص الموظفات اللواتي لن يعتقنها حتى يعرفن ماذا يريد خالد منها. قالت:

- امنحني بعض الوقت، سأحاول لكنني لا أظن أن الأمر سيكون في صالحها، كونها ستتزوج منك.

غادرت "حسنة" بسرعة إلى دائرتها، فقد قابلها خالد قرب الدائرة قبل بداية الدوام الرسمي.

صبر خالد ثلاثة أيام حتى جاءه الرد المخيب للآمال على لسان "حسنة"، ربَّما حذفت منه الكثير، لكنها أوصلت المفيد: "على شيماء أن تنسى أن لديها ابن، ولن تراه بعد اليوم".

احتار خالد في امره، كيف ينقل الخبر إلها، وهو الذي وعدها ان يعيد ريان إلى أحضانها، فهي لا تستطيع البعد عنه، لكن "جاسم" قد أحكم الخناق عليها، وهل تأمل ان يرق لها قلبه! وهي التي مرغت شرفه في الوحل، وسقته كأس العار، أشعلت النار المستعرة في قلبه. هو أيضاً يريد أن يشعل النار في قلبها، لا بل أكثر من ذلك يريدها أن تحترق بنارها.

رأى خالد على شيماء أن تواجه الواقع كما هو، إذا لم تتزوجه إلى أين تذهب؟ وهل يوجد من يقبل بها زوجة؟

جسر

لا يوفر نزهة لطفل

(١)

جلس "جاسم" مضطربا مشتت البال لا يدري كيف يتصرف، كانت الأفكار الغريبة تلعب بعقله بعد تلك الصدمة التي لم تخطر في باله قط، كان يرى الحياة عملاً وسلاماً . لكنها لم تعد كذلك، تمنى لو أنه قتلها، لكن ذلك فات ميعاده الآن، ولم يعد يستطيع فعله . كان يجب أن يفعل في لحظة الجريمة, حينها سيكون لديه العذر, وسينظر إليه على انه بطل لشرفه, إنما الآن هيهات... عليه أن يجد طريقة جديدة كي يواصل حياته، شعر بسائل لزج يسيل على عنقه، وخشي أن يكون النزيف وقد عاوده تحت تأثير الضربة التي تلقاها من خالد . مسح العرق عن جبينه.

قال لنفسه:

- النذلان ..، ماذا لديهما أكثر ليفعلاه؟ كاد أن يقتلني اللعين.

بقيت تؤرقه المأساة، التي قلبت حياته الهادئة رأساً على عقب، مازالت الضربة تؤلمه. لكن حرقة الألم التي في قلبه اشد مما هي في رأسه.

لا أحد ينكر كان أن جاسم رجل محترم ومسالم ومخلص في عمله على الرغم من بخله، لديه المال الكثير، لم يتوقع أن تكون الحياة بهذه القسوة، شعر بأن كل تلك الصفات قد جُردت عنه أصبح صغيراً موشوماً بالعار متلاشياً ... أصغر من فأر يخرج موحلاً من المجاري.

حينما أيقظ " ريان " في ذلك اليوم, توقف عند رأسه، وراح يتمعن في ملامح وجهه تحت ضوء المصباح، راعه المشهد، إنه لا يشبهه لا يشبهه، خيل إليه أنه كثير الشبه ب "خالد"، يا للمأساة، إنه ليس أبنه، جلس على الكرسي التي تقبع إلى جوار السرير الصغير، وراحت الأفكار تؤرقه, كان حقده على زوجته يطغى على كل تفكيره، لذلك اخذ عقله المشوش يوحي له

بما يريد . كان جاسم في قرارة نفسه يتمنى أن يتخلص من الصغير على الرغم من أنه ابنه ومن صلبه هو, لكنه يذكره بزوجته الخائنة، ماتت كل عواطفه نحوه، لا بل بدأ يكرهه، وسوس له الشيطان لحظتها، لماذا لا انتقم نها من خلاله؟ استقرت الفكرة في رأسه، لن يسلمه لأمه، ليس حبا به، ولا حرصا عليه، لكنه سيجعله أداة للانتقام منها .

يتخبط "جاسم" في لجات من الوهم، لم يكن عقله قادراً على تحديد فكرة معينة، فهو مشتت البال ولا يدري ماذا يفعل .

لم يكن جاسم معتاداً على العيش بمفرده، فهو يحتاج إلى من يطبخ له، ويغسل ملابسه، ويكوي ويصبغ حذاءه، ... قائمة لا تنتهي، كل ذلك الشغل كانت تقوم به امرأته رغم مساوئها.

عندما صحا "ريان" سأل:

- أين أمي؟
- تركتك وهربت مع الوحش.

أخذ " ريان " يبكي، لكن "جاسم" لم يأبه به ولم يرق له قلبه. شعر أن البيت قد ضاق عليه والشوارع والحياة بما رحُبت. جره من يده وخرجا من البيت، قصد "جاسم" بيت "حسنة"، فهي زميلته، مطلقة وتسكن وحدها في بيتها، وقد كانت تتودد له، طلبتْ إليه أن يزورها في بيتها مرات عدة . وقد حانت الساعة فاليوم عطلة، حتماً ستكون في بيتها في هذا الصباح.

الآن الوضع أختلف لا بد لـ "جاسم" أن يغير بعض سلوكياته، إذا كان سابقاً يرى أنه رجل مستقيم، ها هو اليوم قد أصبح رجلاً أعوجا، عاش سنيناً مطعوناً في شرفه، لم يعد يستطيع أن يّدعي الشرف، وأقرب صديق إليه كان وحشاً، لم يعد هناك ما يهم ليكن وحشاً، فالحياة مليئة بالوحوش.

طرق باب "حسنة"، حتى كاد أن يصيبه اليأس, لكنها فتحت أخيراً, فوجئت بوجود "جاسم" عند بابها، كانت تعتقد أنه قد سافر وسيعود بعد أسبوع

قالت مرتبكة:

- أهلاً أستاذ اليوم تطرق بابنا:
- أريد منك خدمة:
- إذا كنت أقدر عليها، لن أقصّر.
- أريد أن يبقى عندك " ريان " لبعض الوقت حتى ارتب اموري:
- ماذا حدث، عسى أنه خير.
- سأخبرك لاحقاً.
- " ريان " ولد مهذب، لولا أن صديقتي عندي لقلت لك تفضل معه، أرجو أن لا تتأخر عليه.
- سأمر الساعة التاسعة مساءً لآخذه.
- سأكون بانتظارك، لا تنس.

دخلت "حسنة" وهي تمسك " ريان " من يده، قالت:

- أنت ولد عاقل، وحلو، اجلس في الغرفة، و لا تخرج منها.

ثم خرجت وأقفلت باب الغرفة من الخارج، وتركته مثل طير في قفص، لا يستطيع أن يبقى ساكناً لفترة طويلة، وقد تعود مثل باقي الأطفال على الحركة واللعب، ثم أخذ يقفز فوق السرير، فيهتز، كم عذبه اهتزاز سرير أمه، وهو يسترق النظر من فتحات الصندوق، اليوم ليس لديه صندوق، ربَّما أصبح صندوقه أكبر، ثم أخذ يتقلب فوق السرير وكأنه يصارع وحشاً، ثم يقف ويرفع يديه مثل بطل منتصر. بعد أن سأم، نزل من السرير وأخذ ينتقل على أرضية الغرفة، اقترب من الشباك، لكنه في محاولة فتحه اخفق كثيراً, كان ان يصرخ لكنه سمع وقع أقدام, وكلاماً لم يفهمه دار بين "حسنة" ورجل.

بعد دقائق فتحت "حسنة" باب الغرفة، وطلبت منه، أن يجلس في الصالة، ولا يخرج من البيت، كي تعد له الغداء. بعد أن تأخذ حماماً، تذكر

كيف دخلت أمه الحمام بعد أن غادر سريرها "خالد"، حتى حسب أن كل امرأة تدخل الحمام, قد ارتكبت فعلا شنيعا قبيل ذلك.

بعد ساعة جلبت له الطعام، ألتهمه بسرعة، فقد كان جائعاً منذ الصباح لم يأكل شيئا

قالت:

- أنت جائع، لكن لا تأكل بسرعة حتى لا تغص. المدارس على الأبواب، أنت بحاجة للذهاب إلى المدرسة، قبل أن تبدأ المدرسة سأشتري لك ثياباً هدية مني إليك.

أومأ برأسه، ثم جلبت له عبوة ماء باردة.

قالت:

- أريدك أن تبقى في البيت حتى أرجع من السوق.
- هل يوجد فئران في بيتك.
- هل تخافها؟
- لا أريد ان اصطادها. أو نضع لها السم معاً.

ضحكت لما جاء على ذكر الفئران، ثم واصل "ريان" كلامه:

- خذيني معك إلى السوق، أريد أن أشتري "آيس كريم"، و"طوبة" ....
- أبوك لا يرضى أن تخرج من البيت، ستبقى حتى يأتي كي يأخذك. سأجلب لك "آيس كريم" عندما أرجع.

الحقيقة ودت لو يبقى " ريان " معها في البيت، يسليها في وحدتها القاتلة، فهي لم ترزق بطفل من طليقها، ولكنها تحب الأطفال كثيراً على العكس "جاسم" الذي لا يطيق عراكهم وضجيجهم.

أملت حسنة أن يكون ريان الخيط الذي يربط بينها وبين "جاسم"، فهو رجل والسلام، ماذا تريد بعد هذا العمر، فقد كبرتْ، لم تعد شابة مثل "أم

ريان ". عليها ألا تفوت الفرصة، قد لا تأتي إلا مرة واحدة، وها قد جاءت إلى باب بيتها بيتها، هو في حاجة إلى امرأة تحتويه وتقف الى جواره.

أغلقت باب البيت بالمفتاح وذهبت... الآن أصبح قفص "ريان" اكبر, وبات لديه مجال أكثر اتساعاً للحركة, من الغرفة وسريرها الذي يعذبه، كان يود لو يذهب معها، لكن ليس في يده حيلة.

(٢)

في الساعة التاسعة طرق "جاسم" باب دار "حسنة" فتحت الباب فورا كأنها كانت واقفة بانتظاره، رحبت به، ودعته إلى الدخول، فدخل، فوجئ لم تكن "حسنة" بذاك القبح الذي كان يراه عند دوامها معه في الدائرة، فاح عطر صارخ من كل ما فيها، وقد استبدلت بتلك الثياب القاتمة ثوبا كأنه صنع من اجل سهرة مرتقبة، أظهرت مفاتنها المخفية، حتى ان عمرها بان أصغر مما هو عليه.

لاحظ "جاسم" أن بيتها نظيف ونازك. مرتب بعناية فائقة، ربَّما كان من أرث المرحوم والدها. تعاملت معه بطريقة ودودة أشعرته بأنه في بيته فإنشرح صدره وزال عنه بعض الهم .

على الرغم من تودد " ريان " إليه, لم يكن يعيره إهتماماً

قال له فرحاً:

- ماما "حسنة" جلبت لي "الموطا" و"الطوبة" .. تريدني أن أكون إبنها.

لم يلتفت "جاسم" صوبه ولم يعلق على كلامه، بل وضع علبة الحلويات على المنضدة، قائلاً:

- أرجو أن تقبلي هذه الهدية البسيطة مني:
- شكراً .... سأعد لك العشاء.
- شكراً .. ليس لدي رغبة في الأكل، أشعر بنفسي مسدودة إلى الآخر.
- هون عليك، كل شيء سوف يهون، صحتك أهم من كل شيء. أفضالك سابقة علينا.

لا يتذكر جاسم أن له أفضالاً عليها، لكن، لا بأس إن صدّق هذه الكذبة على سبيل المجاملة، لكنه في المستقبل عليه أن يكذب ويصدق الكذب، ماذا أفاده ذلك الصدق مع نفسه، ومع شيماء وصديقه المقرب خالد.

لم تقف الأمور مع "حسنة" في حدود المجاملات، بل دخلت في الخصوصيات، أبدت هلعها وكأنها لا تعرف أن "جاسم" قد طلق امرأته، والتجأت إلى "خالد"، لكنها ذهلت حين اعرب لها عن نيته في بيع أملاكه، فقد ناقش الأمر مع أحد معارفه من "مكاتب" العقارات. وقد شملت جولته في هذا اليوم تبليغ من هم مدينون له بالأموال من أجل الاستعجال في تسديدها، وقرر أن يطلب التقاعد، ثم يهاجر من غير رجعة، ويلغي كل تاريخه.

اعترضت "حسنة" على كل ما عرضه "جاسم"، فهذا العرض لا يتوافق مع تطلعاتها المضمرة، ربَّما كانت أكثر موضوعية منه، لكنه لم يعد ذلك الرجل القوي الصارم، حتى الجانب الإنساني لديه قد بهت وبدأ يتوارى .

قالت:

- لستَ أول ولا آخر إنسان في هذه الحياة الزائلة يتعرض إلى مثل هذه النكسات، عليك أن تكون أقوى منها وتجد من يساندك، وتواصل الحياة.

- ما كنت أتوقع أن تعاقبني الحياة هكذا، ما كان ذنبي؟ كي أُحاسب، وما الجرم الذي اقترفته؟ كي يكون هذا جزائي.

- أنت إنسان محترم، وهناك ألف امرأة ترغب فيك، انظر لمن حولك، ستعرف من التي تريد لك الخير، ابعد عن نفسك كل هم. الزمن كفيل بالنسيان والتغيير.

قامت وتوجهت نحو المطبخ، وبعد دقائق عدة جاءت - والإبتسامة لا تفارق وجهها – تحمل كوبا فيه عصير الليمون

قالت:

- من أجلي, إشرب هذا الليمون كي تهدئ أعصابك، فأنت متعب وبحاجة إلى الراحة، ولا أقدر أن أراك مزعوجاً، فقلبي يؤلمني.

أصبحت "حسنة" خفيفة الظل في عيني "جاسم"، تواسيه وتداوي جراحه، مما جعل لها معَزة في قلبه، إنها تواصل خطوات تقربها، لعلها لا لاتبوء بالفشل. أملها كبير، ولا يمكن أن تتخلى عن هدفها المنشود، فهي قد اختبرت الرجال جيداً وعلى وجه الخصوص "جاسم".

قاربت الساعة الحادية عشرة، إستاذنها "جاسم "

اعترضت "حسنة" قائلة:

- البيت بيتك توجد غرفة لك و" ريان ".

وافقها لكنه قال:

- لا أطيق أن يكون معي هذا الولد.

- حسناً .. سينام قربي في غرفتي، فهو قد تآلف معي منذ دخوله دارنا، أنا بمنزلة أمه.

- لا .. لا يوجد وجه شبه بينك وبينها، هي شيطان رجيم، وأنت ملاك رحيم.

هكذا حققت "حسنة" أولى خطواتها باحتواء "جاسم"، أما بقية الخطوات ستكون سهلة، شعرت أنها تنفذ ما تريده بهدوء وإحكام.

ها هي الأمور تسهل أمامه، لم يكن يظن أنه سيجد له مأوى بهذه السهولة، فقد كبر حاجزه النفسي حول العودة إلى بيته.

كان "جاسم" متعباً من الحوادث، وجولة هذا اليوم الطويلة، ما أن ألقى برأسه على الوسادة، حتى غط في نوم عميق. لكن حسنة جاءت لتعكر صفو نومه طالبة منه الزواج بها، كان النعاس والتعب وهذا الطلب السريع قد جعله يومئ برأسه لها فحسب، وإكتفت هي بإبتسامة وغادرت المكان ..

لم يفكر جاسم بهذا الطلب قبل ان يعود إلى النوم لكن كوابيس مزعجة أيقظته في الهزيع الثاني من الليل وجعلته يفكر بطلب زواج حسنه منه.

(٣)

في بداية الأسبوع الثاني أخر "جاسم" "حسنة" بموافقته على الزواج منها، لكنه قال:

- لدي شرط إن وافقتِ عليه، لا يوجد أي معوق لإتمام العقد، وتبدأ حياتنا الجديدة.

- ما هذا الشرط؟

- إن لا يبقى " ريان " معنا في البيت.

- هل ستعيده إلى أمه ، فقد جاءتني أمس، أنت تعلم قبلها جاءني "خالد"، وبكت كثيراً وتوسلت، كي أقنعك بإعادته إليها.

- إنها تطلب المستحيل، لن تراه طول عمرها.

- كنت أتوقع ان يكون شرطك, بقاء "ريان" بيننا. حقيقية أنا أحببته، ولا أريد أن أفرط به. إلى أين تريد أن ترسله، لا أعتقد انه يوجد مكان أفضل من بيتنا.

- هذا .. ليس من شأنك، أعرف إلى أين أرسله.

- أنا أقول هنا في بيتنا يكون مرتاحاً، نستطيع أن نربيه، ونحافظ عليه. ونرعاه، ثم المدرسة قادمة، وهو في بداية مشواره الدراسي، أخشى أن يضيع هذا الولد، فلا ذنب له في كل ما جرى.

- سوف أجد من يرعاه.

- لا بأس إن كان هناك من سيتعهد إليه بريان حتى لو لم تخبرني من هو, طالما أنه سيعتني به لا مشكلة بالنسبة إلي، ولكن أود لو نستطيع رؤيته بين الحين والآخر.

- نعم سيقوم برعايته، لكن ليس من الضروري أن نراه. إذا كنت.. تريدين أن نكون معاً، وافقي على شرطي، من دون مناقشة، واختلاق العراقيل.

حاولت "حسنة" ثني "جاسم" عن قراره، ولكن مساعيها باءت بالفشل . إلا أنها لم تستطيع أن ترفض وتفوتها هذه الفرصة، فوافقت على مضض، أن تتخلى عن وجود " ريان " عندها، لعل الظروف تتغير، ويأتي اليوم الذي يكون "ريان" بينهما.

لم تطلب "حسنة" منه أي شيء سوى الزواج منها. وستتكفل هي بكل التكاليف. كانت تفكر في شيء، وهو يوافقها على كل ما تقول، ويضمر في باله شيئاً خبيثاً آخر.

في صباح هذا اليوم المشهود سافرت "حسنة" بدلاً من "جاسم"، فهي أصبحت المسؤولة، وقد وعدت " ريان " بالكثير من الهدايا عندما تعود، ووعدت "جاسم" أن يتم كل شيء حسب ما يريد، كان جل ما تهتم له هو رضاه.

وجد "جاسم" الفرصة المواتية كي ينفذ خطته الجهنمية، ليبدأ بـ" ريان "، وعندما تعود "حسنة يعد لها العدة. فكل شيء قد حسبه في عقله، إن كان له عقل.

فوجئ " ريان " أن أباه يوقظه من النوم بعد منتصف الليل، تململ في فراشه، لم تكن له رغبة في النهوض، لكن "جاسم" هزه من كتفه ونهره، خاف " ريان " وامتثل للأمر.

خاف ريان وتولاه الجزع وهو يرى وجه أبيه متجهماً يوحي بالشر، وراح يجره من يده بقسوة، شعر أن اليد التي تقبض على يده بقسوة، تتوغل وتكبر وتطبق على عنقه . شعر الصبي بانقباض جعل حواسه تستنفر كلها . كانت الساعة قد شارفت على الثالثة من صباح ذلك اليوم المشؤوم, كان " ريان "

يلبس "تراكاً" ذا علامة مميزة، وصندلاً خفيفاً، يصدر صوتاً على بلاط الرصيف وهو يحاول ان يلحق بخطى والده السريعة، وحينما وصلا إلى الجسر الجسر كان ماء النهر هادئاً، والجو ساكناً، وقد فرغ الجسر من المارة والمركبات, توقف جاسم في منتصف الجسر, فلم يرَ أحداً، نظر إلى الصبي, كان ريان واقفاً الى جواره، وقد بدا بوجهه الأبيض الرقيق وعينيه الناعستين كأطفال الحكايات الذين يقعون في قبضة الوحوش حينما تكون أمهاتهم نائمات . كادت ان تدخل قلبه الشفقة، ويقع عما هو مقبل عليه, لكن الوحش في داخله نهره، فحمل الصبي بكلتا يديه، وألقى به في النهر بسرعة، ثم عاد مسرعاً كي لا يلاحظ وجوده احد.

كان الظلام دامساً، وراح يتخبط في الماء ويقام الغرق، أخرج رأسه من الماء، وراح يحرك يديه ويدفع بجسده نحو الضفة بحركات مجنونة يائسة، أغلق ريان فمه كي لا يبتلع الماء . لم تذهب دروس خالد في السباحة هباءً، لقد انقذته واستطاع الوصول بعد جهد وتشبث بالحياة إلى ضفة النهر، وجلس يسترد أنفاسه.

كانت صدمته أكبر من أن يستوعبها عقله الصغير، وأخذ يفكر هل هذا الذي رمى به إلى النهر هو والده، الذي أحبه وحاول كثيراً التقرب منه؟ عادت إلى ذاكرته ذكرى سرير والدته وخالد الوحش، لم يكن عقله الصغير يسعفه في ربط الأحداث، لكن يد الوحش التي ألقت به في النهر، قطعت كل خيط يربطه بهما، في تلك اللحظة بدأت الكراهية تنمو وتكبر في نفسه ، لتصبح حبالاً تطوق كل ما حوله، وتشنق كل فرح في قادم أيامه.

ظل جالساً ليسترد أنفاسه، على الرغم من أنه لا يدري إلى أين سيذهب، فقد واجه عقبة، إذ إنه لا يستطيع أن يصعد الجانب الصخري للنهر، كي يصل إلى الشارع الذي شيد على رصيفه "كشكاً" صغيراً، لكنه سلم أمره لله ما بين الخوف، والمصير المجهول.

ما إن أشرقت الشمس، اتضح كل شيء، بدأت الحركة تدب على الجسر، واختلطت أصوات المارة والعربات، و جاء صاحب "الكشك"، قبل أن يفتح بابه، سمع صوت بكاء، واستغرب من وجود طفل على ضفة النهر في أسفل الجسر،، فنزل صاحب الكشك إلى الجرف، وأخرج " ريان ".

على الرغم من ملابسه الملوثة، إلا أنها كانت تعطي انطباعاً، أنه ليس من عائلة فقيرة، وعندما سأله صاحب الكشك:

- ما اسمك؟
- " ريان "
- ماذا جرى لك؟
- "أبي" لا يريد أن يعيدني إلى أمي، وألقى بي في النهر، وقد سبحت ووصلت إلى هنا.
- ماذا تقول، أبوك ألقى بك في النهر.
- نعم أنه يكرهني.
- وأين أمك؟
- هربت مع الوحش.
- أي وحش؟
- "خالد"

أدرك صاحب "الكشك" إن وراء هذا الطفل قصة طويلة، يا لهذه المهزلة، هو وزوجته، يحلمان أن يكون لهما ولد، والناس تلقي بأولادها في النهر ليغرقوا. يا لقلوبهم القاسية.

ربَّما شاءت الأقدار أن يحصلا على ولد بهذه الطريقة العجيبة. لم يرد أن يبلغ الشرطة، بل أراد أن يتكتم عليه، ويتبناه. فهو في الواقع لا أب له ولا أم، ليكن هو أباه وزوجته أمه.

(٤)

على الرغم من أن "جاسم" قد وَعدَ "حسنة" أنه لن يهاجر، لكنه صمم أن يستحوذ على ما تركته بأمانته من مال ومصوغات ذهبية، إنها ثروة كبيرة سال لعابه عليها.

بعد يومين من فعلته الدنيئة، كان "جاسم" جالساً في غرفة "حسنة" وسرير " ريان " فارغ، يحصي ما تجمع لديه من مال، في الساعة التاسعة، طرق باب البيت، نظر جاسم خلسة من ثقب الباب , فوجد ولدا صغيرا يقارب ريان في العمر!

من... ريان ؟

لا إنه ليس ريان

ولما خرج

قال الولد:

- هذه رسالة لك.
- ممن هذه الرسالة؟
- من رجل قال: إنه معوق لا يستطيع أن ينزل من سيارته.
- أين هو هذا الرجل؟

ألتفت الولد نحو الشارع لم يجد السيارة. قال:

- كان هناك، لا بد أنه ذهب.
- هل تعرفه؟
- لا .. لا أعرفه، ليس من المنطقة، ولم أره من قبل.

ذهب الولد وهو يتحسس المبلغ الذي دسه "صاحب الكشك" في جيبه. فتح "جاسم" الرسالة وقرأ: "لن تفلت من العقوبة، بعد جريمتك النكراء".

بدأت الأمور تتعقد على "جاسم"، لا يمكن أن يكون هذا الشخص خالد الذي استأجر بيتاً سكنه مع "أم ريان "، ليس بعيداً عنه لو كان هو لما تأخر لحظة في إبلاغ الشرطة، إنها مسألة محيرة، كان متأكداً، إنه لم يره أي شخص عندما ألقى بـ" ريان " في النهر.

في صباح اليوم الثاني وصلت إليه رسالة من الدائرة، اشتد خوفه، لكن لما فتحها وقرأ:

"خطيبي حبيبي: أرسل لك هذا الفاكس، أود أن أخبرك أنني مشتاقة جداً إليك وإلى "ريان"، إلا إن الإيفاد تمدد لمدة أربعة أيام بسبب أمور فنية. أتمنى أن تكون بخير أنت و" ريان ". إلى لقاء قريب.

<<<المخلصة "حسنة>>>

في اليوم الثاني الساعة التاسعة مساء، طرق ولد آخر باب "جاسم" سلمه رسالة، قال للولد:

- انتظر .. لا تذهب.

فتح الرسالة. قرأ: "لن تفلت من العقوبة، بعد جريمتك النكراء".

قال "جاسم"

- من أعطاك الرسالة؟
- امرأة مرت من هنا، قالت: أعطِ هذه الرسالة لصاحب الدار، أنا استحرم أن يراني.
- أين هي؟
- كانت هناك واقفة، ربَّما ذهبت.
- هل تعرفها.
- لا .. لا أعرفها.

- هل تعرفها إذا رأيتها مرة أخرى.
- لا.
- لماذا؟
- كانت تضع نقاباً على وجهها

ذهب الولد وهو يمسك بيده النقود التي دستها "زوجة صاحب الكشك" فيها.

مثلما استبعد "جاسم" "خالد" من ظنونه، استبعد شيماء كذلك. إذن أصبح أكثر من شخص واحد يعلم بجريمته، كان يظن أن الجثة جرفها الماء نحو الخليج. في الليل البهيم، لم يعد يستطيع النوم، لم تعد جريمته خافية، لو سقط في يد الشرطة فلن تعجز عن إيجاد الدليل، ستكون عقوبته الإعدام لا محال. عليه أن ينفذ بجلده قبل أن يُلقى القبض عليه.

كاد الوقت يطبق عليه، لكنه مازال كافيا لتنفيذ مخططه، غداً يبيع الذهب، بعد أن باع البيت، وسيسحب أمواله من البنك كي يتمكن من الهرب، عليه أن يستعين بإبن أخيه "سرمد" فهو لا تنقصه الحيلة كي يمكنه من الهجرة.

كان "سرمد" الإبن الوحيد لأخيه الكبير الذي هاجر قبل خمس سنوات لكن لم يُعرف عنه خبراً.

لأول مرة منذ سنتين يذهب "جاسم" إلى "محل الأمانة للصيرفة"، كان المحل في شارع من شوارع وسط المدينة المعروف بمحاله الراقية، وفيه مكاتب الصيرفة المتعددة . رحب "سرمد" بعمه، لكنه خشي أن يطلب منه بعض المال فهو يمر بأزمة مالية خانقة، لكنه فوجئ عندما قال له:

- لدي الكثير من الأموال، أريد توظيفها لديك. فأنت ابن أخي، لا أستطيع ائتمان أحد غيرك عليها.
- هذا أمر يسعدني، أن تكون أموالنا واحدة، ونعمل في سوق المال.

- توجد أمور علينا الاتفاق عليها. كي لا نختلف في المستقبل.
- كل ما ترغب فيه، أوامر تنفذ لك. أنا من يدك هذه ليدك تلك، أنت أبي الباقي لي في هذه الحياة.
- إضافة إلى ذلك سأحرر لك وكالة عامة بكل أملاكي، وشؤوني المالية، إلا أنني أريد منك طلبا عليك تنفيذه.
- قلت لك، اطلب أي شيء تجدني طوع أمرك.
- أريد أن تساعدني على الهجرة في أسرع وقت.
- نعم .. خلال أسبوع يتم تأمين وصولك إلى أزمير، والباقي على الله وعليك.
- اتفقنا، غدا سنبدأ بإنجاز كل المتطلبات.
- على بركة الله، إن شاء الله يعم الخير علينا.

لم يحلم "سرمد" بمثل هذه الصفقة التي هبطت عليه من السماء في ظروفه الخانقة، ستحل أزمته ويسدد كل ديونه، ويبدأ العمل الذي يحلم به.

(٥)

هكذا جعلت تلك الرسائل التي كانت تصله، خطواته من أجل الهروب تسير بسرعة أكبر، كان لـ "سرمد" يعرف أولئك الناس الذين يعملون في تهريب من يرغب في الهجرة غير الشرعية مقابل مبالغ من المال.

أصبح شغل "سرمد" الشاغل كيف يستطيع، أن يوفر الطريق الآمن لعبور عمه الحدود، مادام المال متوفراً، فهذه ليست مشكلة، رافقه حتى حدود البلاد، ودفع المال الدليل كي يتوجه إلى تركيا حتى يصل أزمير المدينة المكتظة بالسكان والأجانب، ومقاهيها ومطاعمها الكثيرة، إلا أن "جاسم" كان مقيدا مثل الذين معه بالبقاء في الفندق الذي يقيمون فيه.

اطمأن عليه بعد أن عبر الحدود، وهناك يستطيع أن يتدبر أمره، مع عدد من الهاربين نحو اليونان. كان "جاسم" متكتماً قليل الكلام، لا يفصح عن الأسباب الحقيقية لهجرته، كان بعض المهاجرين يشكون من قسوة الحياة، ويلعنون الحروب، وسلطات دولهم التي لم تستطع توفير الحياة الكريمة لمواطنيهم، مما دفعهم إلى المخاطرة في الهجرة، فهي أرحم من بقائهم يتجرعون الموت كل يوم. أما هو فلو حكى قصته الحقيقية، لأمسكوا به، وألقوه في البحر، فهو لا يستحق جزاء أقل من ذلك، تصوروه مثلهم هاربا من شظف العيش، ويطمح في حياة كريمة.

كان همه الوحيد هو نفسه، لا يريد أن يُلقى القبض عليه مهما كلف الأمر، فقد أصبح هاجس الإعدام لا يفارقه، ويتراءى له "ريان" في كل لحظة وهو يلقي به في النهر، ولا يريد أن يصل الخبر إلى خالد ولا لشيماء . بعد أن أصبح سكنهما قريباً منه. لو عرفا لا يتوانيا عن التبليغ عنه مهما كلفهما الأمر، فلم يخطر ببالهما ما فعله بريان أبداً.

على الرغم من المتاعب التي يعانيها، شعر "جاسم" ببعض الاطمئنان، ما هي إلا أيام معدودات ويعبر بحر إيجة ويدخل اليونان، ويكون من اللاجئين، وبعد ذلك يعيش الحياة التي يريدها، وقد نفذ ما عزم عليه، ويبقى قلب "أم ريان " محترقاً على فراق أبنها. لولا تلك الرسائل التي كانت تصله، لأكمل تنفيذ مخططه من الوضع المستريح، هذه الرسائل غيرت خطواته، كان في نيته يريد الخلاص من "حسنة" التي آوته، بعد أن يسلبها كل شيء، ويخونها مثلما خانته "أم ريان ". لكن الوقت لم يسعفه، والتجأ إلى "سرمد".

في الأسبوع الأول كانت الرياح قوية، مما أدى إلى تأخر موعد إبحار المركب الذي سيقله إلى اليونان، فضلا عن أن المتعهد طلب مبالغ إضافية، من اجل نفقات السكن وغيره من الأمور، لم يكن في يده حيلة، دفعها على مضض، لم تبقَ غير ساعات معدودات، ويكون في اليونان.

أخذته الأفكار بعيداً، لا يدري ما يخبئه له القدر، ليست الرحلة كما تصورها سهلة ومريحة، كان القارب قديماً متهالكاً، قد حُمل بأكثر من طاقته من الرجال والنساء، والأطفال من جنسيات مختلفة.

بدا البحر في عز الليل موحشاً، وضاعت الجهات، كانت الأصوات كثيرة ولغط لا يتوقف مع هدير المحرك، كل شيء لاح قريبا سوف يصل بعد وقت قليل، لكن عقبة واجهتهم، فقد تعطل محرك الزورق. كان ذلك نذير شؤم لم يحسب القائمون على الرحلة له حساباً، ولم يتخذوا إحتياطاتهم لمثل هذا الظرف الطارئ العصيب.

كانت المسافة قريبة من الشاطئ الآخر، وبعد أن يئس المهاجرون من إصلاح العطل، لم تعد هناك وسيلة للوصول غير السباحة، فالمسافة لم تكن طويلة، فبادر الشباب الأقوياء إلى ترك القارب وما فيه، وألقوا بأنفسهم في الماء كي يصلوا إلى الجانب الآخر.

وقع "جاسم" في ورطة، إنه يجيد السباحة، لكنه إن بقي القارب ربَّما يسقط في يد سلطة أزمير، ويعاد من حيث أتى وتذهب كل جهوده سدى، ولا يدري ما المصير الذي سيلاقيه لو تمت إعادته إلى البلاد، سوف تفتح عليه الكثير من الأبواب، التي لا يستطيع إغلاقها، قرر أن يسبح حاله حال الآخرين بعد أن سمع هاجساً يهيب به "اسبح ما هي إلا مسافة قصيرة". شعر بأن يداً ناعمة تمسك بيده وتقذفه في البحر، لكنه لم يرَ جسرا !

كان ماء البحر يموج، مما يجعل السباحة صعبة بالنسبة إلى شخص مثله بهذا العمر، حتى بدا الإنهاك عليه، وتجاوزه الشباب الأقوياء، لا يستطيع إن يفكر بالعودة إلى القارب، فهو يرى الأمل في الوصول إلى الساحل الذي تلوح أضواؤه من بعيد، أنه حلم يريد الوصول إليه، يتطلب منه جهداً إضافياً، لكنه شعر بالتشنجات أخذت تثقله، وباتت حركته بطيئة، وبدأ نفسه ينقطع، حتى توقف جسمه عن الحركة، وأخذ يغوص في الماء غارقاً. .....

بعد جهد من أصحاب الزورق تم إصلاح المحرك، وأوصلوا النساء والأطفال وكل الذين بقوا في الزورق إلى الضفة الأخرى بسلام .

لم تمضِ أيام عدة حتى عادت "حسنة"، وهي تؤمل نفسها بحياة جديدة مع زوج المستقبل، وقد اشترت الهدايا لـ " ريان " و"جاسم"، قلقت عندما لم يحضر "جاسم" لاستقبالها في المطار، وصدمت عندما لم تجده في البيت، ووجدت أغراضها مبعثرة وقد اختفت مصوغاتها الذهبية. ولم تستطع أن تعرف له أثراً، بلغت الشرطة عن السرقة واختفائه.

لكن حيرتها زالت عندما، قرأت خبراً في جريدة "المساء"، مع الصورة المرفقة، الشخص الوحيد الذي مات غرقاً في البحر من الهاربين إلى اليونان، كان هو "جاسم" الذي انطوت صفحته.

حزنت "حسنة" على نفسها، وشعرت بأنها أساءت الاختيار، لكن السؤال الذي حيرها هو "أين تجد ريان"؟ فقد شعرت أنه ضحية، مثلها .

السمُّ

الذي قتل الفئران

(١)

عندما علمت شيماء بغرق طليقها، شعرت بأن إبنها قد ضاع منها إلى الأبد، وقد إنعدمت أية وسيلة لمعرفة خبر عنه، تحاملت على نفسها وذهبت إلى "سرمد" واستفسرت منه قائلة:

- إلا تعرف خبراً عن " ريان "، و"جاسم".

نكر "سرمد" جملة وتفصيلاً أن يكو لديه خبر عنهما،

وأجاب:

- منذ سنتين وليس لدي تواصل معه، لقد انتقل إلى رحمة الله، كلنا على هذا الطريق، فقد حل موته مشكلات كثيرة، وخلق أخرى. ولا أعلم خبراً عن " ريان ".

استاءت مما سمعت, فقد شعرت بأنه يكذب، وزادت مشكلتها، لكنها لا تمتلك الجرأة كي تتهمه بالكذب، وليس لديها دليل لتواجهه به وتكشف الحقائق المرة، ربما لا يتورع حينها عن فصحها والتشهير بها.

أصبح أملها ضعيفاً بالعثور عليه، لا تدري هل " ريان " موجود في مكان ما أو في زمان قادم، أم أصبح في يد العدم. مهما كانت سيئة، لكنها تريد ابنها قربها، فقلبها أخذ يحترق عليه، وتشتاق لرؤيته، وتشعر بالقلق الشديد نحوه.

كيف لا ..! و"أول حب في حياة الرجل أمه وآخر حب في حياة المرأة ابنها "

كان صاحب الكشك، يريد لـ " ريان " أن يدخل المدرسة، إلا أن دوامه في مدرسة قريبة، قد يجعله في يوم من الأيام أمام أنظار أمه او أبيه او الوحش الذي هرب بها.

ربما يطالبان بإستعادته، وهو لا يريد أن يتخلى عنه . لأنه أدرك أن ريان كره أمه والوحش، لكنهما لا يأنفان عن خطفه لو سقط في أيديهما.

وجد الحل في أن ينقل سكنه إلى منطقة بعيدة في جانب الشمال الشرقي للمدينة، فصديقه "أبو كريم" صاحب مطعم المشويات يسكن هناك، ليطلب منه أن يجد له بيتاً صغيراً مناسباً.

على الرغم من أن المنطقة بعيدة، فهو يحتاج إلى نصف ساعة كي إلى يصل الكشك، إلا أنها منطقة ريفية صغيرة وهادئة، بعيدة عن ضجيج المدينة ولغط أناسها، تنفتح على صحراء واسعة، فيمتد البصر بعيداً، من البداية عد صاحب الكشك وزوجته أن " ريان " ابناً لهما، والآن عليهما رعايته كما يجب، فالمدرسة قريبة من البيت.

كان " ريان " في البيت هادئاً مطيعاً، لكنه في المدرسة مشاكساً، كثير اللعب والحركة والشجار، غريباً في تصرفاته.

كان التلاميذ يبتعدون عنه ويخشونه، ما عدا "كريم" إبن صاحب المطعم فقد كان صديقه، وأصبح رفيق دربه، وعندما يتكلمون عن الذكاء، يدّعي أنه ذكي ويعرف الأرقام، ويعرف القراءة، لكنه, والحق يقال إنه يعرف الأرقام، لكنه لا يتفوق في العمليات الحسابية ويخطئ كثيراً، أما في القراءة فهو يختلق الكلام بما يناسب الصور في الكتاب ويكرر ما يسمعه من المعلم بصورة عشوائية، وتأتي الكلمات غير مرتبة كما في الكتاب، فقد أتعب معلميه حتى أنهم طلبوا من "ولي أمره" أن يساعدهم في حل هذه المشكلات التي سوف تؤثر في مستقبله.

بدأت زوجة "صاحب الكشك" تواظب على الاهتمام به، وإجباره على التعلم وقد أعطته الكثير من وقتها، وعلى الرغم من ذلك، فهو إستطاع أن يتجاوز المراحل الأولى بصعوبة بالغة، ووصل إلى الصف الخامس، حيث تغيرت ملامح وجهه الطفولية، ونما جسده ومال قليلاً إلى السمنة، في هذه السنة أصبح غير راغب في الذهاب إلى المدرسة، وباءت بالفشل كل الإغراءات والمحاولات التي بذلت من أجل مواصلة الدراسة، فقد اتخذ

قراره، إنه لا فائدة من المدرسة، ترك الدراسة والتحق بالعمل في "الكشك"، فهو يحب العمل والسباحة في الشط في أيام الصيف القائظ.

كانت الزيارات متبادلة بين عائلة "صاحب "الكشك" وعائلة "أبو كريم"، كان " ريان " يسره اللعب مع "كريم" وتنضم إليهما "كريمة" أخت كريم الصغيرة معهم . كانت فتاة تصرفاتها عفوية، لها عينان عسليتان، لما كبر أخذ يرى فيهما شيئاً مختلفاً، ولما برز صدرها لم تعد تجلس معهما، لكنه عندما يراها يشعر بدفق من الحنان يجتاح كيانه، ولا يعرف كيف يصف هذا الشعور الذي يحسه ينبع من داخله . كان بوده أن يكون قربها دائماً، وإن لم تكن صارخة الجمال، لكنه يرى فيها سحراً يسيطر على كل مشاعره، فهي مؤدبة خجولة، تتكلم بصوت خافت، حتى بسمتها خافتة. وكان يختلق الأعذار كي يذهب إلى بيت "أبو كريم" لعله يراها، وكانت على النقيض منه ومن "كريم" تحب المدرسة، وتنجح في كل سنة بتفوق.

في احد ايام الخميس، وفي وقت المساء عندما يكثر المتنزهون على كورنيش الشط، لمح أمه وعشيقها خالد "الوحش" كما يسميه يقتربان من الكشك، قال في نفسه:

- أمي والوحش يقتربان من الكشك.!

ثم خرج من الباب الخلفي.

وقف قرب الكشك، اشترى خالد علبتي عصير برتقال باردتين، وبعض المكسرات. كان " ريان " يراهما عندما جلسا على مصطبة لا تبعد كثيراً عن الكشك، يتهامسان وينظران إلى الشط. كان بوده لو يلقي بهما في الشط نفسه أو يقتلهما، أو يضع لهما السم في ذلك العصير.

عندما عاد " ريان " إلى الكشك لاحظ "صاحب الكشك" أن "ريان قد تغيرت ملامحه، وأصبح حانقاً. فعرفهما من خلاله قال:

- لا داعي ان تهرب يا " ريان " فأنت ليس ذاك " ريان " أبنها، بعد أن كبرت، فأنت ولدي وأمك زوجتي، أنت واحد منا لا يستطيع أي كائن في الكون أن يأخذك، ما دمت أنت تريد العيش معنا، نحبك، ونريدك أن تحبنا ايضا.

- إني أحبكما وأكرههما, ولا أريد أن أراهما، لو كنت قادراً لقتلتهما.

- يا ولدي لا تفكر بهذه الطريقة، طريق الخير هو طريق السلامة، سلم أمرك لله وإحتسب.

رؤية " ريان " لأمه وعشيقها، أشعلت نار الحقد في قلبه، خاصة لما جاءت تلك المشاهد الفاضحة أمام عينيه، مثل فيلم سينمائي ملون. فكر في الانتقام، ولابد ان يتمكن من ذلك في يوم من الأيام .

وبعد أيام معدودة توقفت سيارة حديثة قرب الكشك، نزل منها "سرمد" وطلب أربع علب كوكا كولا، ونصف كيلو مكسرات مملحة، نظر "سرمد" في وجه " ريان " قال:

- لا أدري أين رأيتك، كأنني أعرفك من زمن.

- لكنني لا أعرفك ولم يسبق لي أن رأيتك.

أخذ "سرمد" المشتريات بعد أن دفع ثمنها، وهو يفكر "ليس غريباً علي هذا الشخص".

سمع صاحب الكشك مادار بينهما من حديث، فسأل " ريان ":

- هل تعرفه؟

- نعم أعرفه

- من هو؟

- إنه "سرمد" إبن عمي

- حسناً فعلت عندما نكرته.

في مساء هذا اليوم سبح " ريان " كثيراً مع جمع من الشباب ومن هم في سنه، والتحق بهم "كريم" خشي "صاحب الكشك" عليه من الغرق، وعندما

أراد " ريان " أن يخرج من شاطئ النهر، تذكر تلك الليلة المظلمة التي ألقاه فيها أبوه من الجسر إلى ماء الشط المنحدر، وكيف كان في المكان نفسه جالساً خائفاً ويبكي، حتى جاء "صاحب الكشك" وأخرجه.

مرت هذه السنون على " ريان " وهو يشعر بأن له أباً، وأماً، ولا يريد أن يبتعد عنهما، وأصبح شوقه كبيرا لـ "كريمة"، أحياناً إن توافرت الفرصة يراها وهي راجعة من مدرستها، بملابسها البسيطة، لكنه يجد فيها الكثير من الجمال، ويطلق لأحلامه العنان. وعندما يعود إلى البيت، وترى "أمه" الشوق في عينيه، تقول:

- ما بالك يا " ريان " ؟ ماذا جرى لك
- رأيتها يا "أمي"
- من هذه التي أخذت عقلك؟
- كريمة يا "أمي"
- يا بني مازلت صغيراً على هذه الأمور، سوف تكبر، وإن شاء الله تكون "كريمة" من نصيبك.

كان ريان قد بلغ السادسة عشر من عمره، كان بوده لو كان أكبر، فهو يرى في عيني "كريمة" ما لا يستطيع غيره أن يراه.

(٢)

كان " ريان " حينما يختلي بنفسه في غرفته يبدو حائراً، على الرغم من هذا الحب الذي دخل قلبه، لكنه لا يستطيع أن ينسى مأساته، وتاريخ امه الشائن, ولطالما تساءل: من ابوه الحقيقي؟ وكيف سيعيش هذا الحب في أدغال قلبه السامة . إنها مشكلة تحيره وتقلقه، ثم يلعن أمه وأباه، و"خالد" والحياة كلها، وينخرط في أزمة خانقة، لكنه لا ينكر أنه وجد الحياة الطيبة في هذا البيت الصغير في حجمه، الواسع في حبه.

لم يكن "صاحب الكشك" بخيلاً على الرغم من محدودية دخله، فقد كان يلبي كل طلبات " ريان " بأريحيّة عالية، وبالمقابل كان "ريان" مطيعاً لا يتوانى في العمل، فقد خفف الكثير من الجهد عنه.

أحيانا يرسل "أبو كريم" المشويات لهما بيد "كريم" ويأكلون ثلاثتهم وبعد الأكل يتناولون المشروبات الغازية، فقد أكلوا حد التخمة من مشويات "أبو كريم" الطيبة اللذيذة. فقد كان "أبو كريم" صديق العمر لـ "صاحب الكشك"، وقد مرت عليهما الأيام الصعبة القلقة، ثم جاءت الأيام اليسيرة المستقرة، حتى "أبو كريم" كان راضياً عن "ريان" ويتمنى له كل الخير، وان يصبح رجلاً يستطيع الاعتماد على نفسه.

كان هذا الرضا مثل بارقة امل لـ " ريان " حينما يفكر ب "كريمة" التي ملكت مشاعره كلها . ترى متى تنصفه الدنيا ويضمها إلى صدره المتأجج، كي يطفئ نار شوقه، ويشم عطرها. هي قريبة بعيدة لكنه لا يجرؤ على البوح بما يجيش في صدره، فحينما يصادفها يقف جامداً اخرساً وهي تنظر في عينيه، تستمطر كلامه، لكن لا كلام، سوى كلمات مبعثرة متلعثمة.

لم يكن "ريان" يحسب لغائلة الزمن أي حساب، فهو راضٍ بحياته، لم يكن متشرداً، أو شحاذاً في الشوارع والساحات، له بيت و"أم" و"أب" وعمل, وصديق، وحب ملك عرش قلبه.

مرت تلك الأيام بهدوئها، وكأنها تستعد لعاصفة مدوية، انها الحياة تصفعه بحكمها القاسي، وتلقي في وجهه بفجيعة أكبر من قدرته على احتمالها.

فحينما كان "صاحب الكشك" وزوجته عائدان من محافظة قريبة بعد زيارة أهل زوجته، تعرضت السيارة التي تقلهما إلى حادث سير أودى بحياتهما.

هكذا غيرت الحياة ألوانها، ولطخت أيام " ريان " بلونها الأسود، وأصبح في وحدة قاتلة.

لم يمر وقتا طويلا بعد هذه الحادثة المفجعة، حتى بدأت تتعرى ظلال غائبة عن الغائبين الذين ظهروا فجأة من أقارب "صاحب الكشك" و"زوجته" مطالبين بـ "إرثهم الشرعي"، لم يستطيع " ريان " أن يواجههم، فموقفه القانوني ضعيف أمامهم, وسيجردونه من كل شيء، البيت والمحل. أخذت منه الحياة أباه وأمه، وسيأخذون منه ما تبقى منهما، ماذا سيبقى لديه سوى الفراغ.

وقف معه "أبو كريم" وقد استطاع ان يتوصل إلى تسوية مرضية، هم يريدون "الكشك"، والبيت، فماذا يبقى لـ " ريان ". يدرك "أبو كريم" أن هؤلاء ناس قرويون، لم يحلموا أن يسكنوا المدينة، وها هي الفرصة قد هبطت عليهم بصحن من ذهب. هؤلاء لن يتنازلوا عن أي شيء لـ " ريان " ولن يجد عندهم له ما يستحقه، عليه أن يسوي الأمر بالتي هي أحسن.

وبعد سجال طويل توصلوا إلى السماح ببقاء " ريان " حتى يبلغ الثامنة عشر من عمره في البيت، أي بعد سنتين تحديدا، ثم يعود البيت اليهم، وهم أحرار حينها يتصرفون فيه كما يشاؤون. ظل "ريان" وحيداً تنهش أيامه

الوحشة, وتثير ذكرياته الأليمة, وتغلق كوة النور التي كانت تبدد الظلام الذي يسكن روحه.

ترتبت عليه أعمال منزلية لم يكن يفكر بها من قبل، البيت يلزمه التنظيف، إضافة إلى خدمة نفسه بنفسه في كل الأمور التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية.

لم يبقَ ريان عاطلاً عن العمل، بل وظفه "ابو كريم" في مطعمه، تغيرت أحوال ريان، وإن كان العمل متعباً لكنه كان سعيداً لوجوده قرب صديقه "كريم"، فهو يقدم الأكل للزبائن، ولا يتردد في المساعدة في الأعمال الأخرى. قد كان "أبو كريم" راضياً على " ريان "، ربَّما في باله أمر يصب في صالحه، لو لم تتغير الأمور.

كان " ريان " مرتاحاً في عمله، لا يهمه التعب، فهو شاب قوي، إلا أن وجود الفئران أزعجه، فهذا المطعم لا يليق به وجود الفئران. فإقترح على "أبو كريم" أن القضاء على الفئران، فهو مذ أن كان طفلاً كان يطارد الفئران ويسممها.

وافق "أبو كريم" على طلبه، وأمره أن يجلب السم من سوق العطارين القريب من المطعم. وأوصاه أن يكون حذراً في التعامل مع السم، وأن يبدأ هذا العمل بعد أن يغلق المطعم أبوابه

منذ اليوم الأول فوجئ " ريان " أن هذا السم ليس فعالاً على الرغم من أنه قضى على عدد من الفئران، ولما أخبر " ريان " "أبو كريم" بالأمر، أخبره أن يجلب السم في هذه المرة من مصطفى العطار، فهو معروف بمواده الجيدة.

ذهب " ريان " إلى مصطفى العطار، وقال له:

- أريد سماً قوياً للفئران.
- لدي سم قوي، كن حذراً في استعماله.

- وإذا أريد أن أقتل وحشاً.
- أي وحش.
- أقصد كلباً.
- خذ هذه الزجاجة، وكن حذراً في استخدامها, فلو تناول منها الإنسان قطرة, لسقط ميتاً في مكانه.

(٣)

في يوم الخميس من شهر أب، كان الجو حاراً رطباً، لكن الكورنيش كان في المساء مزدحماً، بالمتنزهين من الرجال والنساء والشباب والأطفال، وتمر السيارات الحديثة التي تثير الإعجاب مثل سيارة "سرمد" وغيرها. لكن " ريان " لم يكن في "الكشك" مثل كل مرة، يبيع ويستلم النقود بفرح.

كان اليوم العمل في المطعم على أشده، ففي هذا اليوم يزداد عدد الزبائن الذين يجيئون خصيصا لتناول العشاء في مطعم "أبو كريم" ازداد ضغط العمل في ذلك اليوم على " ريان " وعلى العاملين كلهم ، كان "ابو كريم" يجيء ويروح مرحبا بالزبائن الذين لا ينفكون عن التردد على مطعمه، يكاد يعرف أغلبهم.

في تلك الليلة خمن أن العمل سيبقى في المطعم إلى ساعات متأخرة من الليل، وقد لا تتوافر له فرصة لوضع السم للفئران، سيعود منهكاً إلى البيت، لا بأس إن أجل قتل الفئران إلى يوم غد، فهو يوم عادي لا مثل هذا اليوم، أين ستذهب سيقضي عليها، ولا يترك لها أثرا سينظف المطعم من هذه المخلوقات الكريهة، كان مصراً على قتلها وكأنه ينظف ليس المطعم منها فحسب، بل ينظف الحياة.

كان الكثير من الزبائن يدخلون المطعم، ويتناولون طعامهم ويغادرون، ويأتي غيرهم، لا تتوقف الحركة في المطعم، أناس يدخلون وأناس يخرجون، وأناس يأكلون وأناس يشربون الشاي بعد الأكل، وأناس ينتظرون تجهيز الأكل لهم.

على الرغم من حرارة الجو في الخارج كان الجو في داخل المطعم مريحاً، فأجهزة التكييف تعمل باستمرار. مما جعل رواده في راحة تمامة. كان العمال يتحركون بسرعة ويلبون طلبات الزبائن، وعلى رأسهم "ريان"

الذي لا يكل ولا يمل، ويلقي بعبارات الترحيب الجميلة إلى الجميع وهو يحدق في وجوههم ويبتسم, بدا كأنه يبحث عن وجوه يريد حضورها, ربَّما وقع تحت هاجس لا يعرف كنهه.

في الساعة التاسعة مساء دخل إلى المطعم "خالد" وعشيقته، لاحظ " ريان " أنهما قد تغيرا كثيراً عما كانا عليه يوم كان طفلاً، شعر أن مرجلاً يغلي في داخله، لكنه تمالك نفسه ورحب بهم وقادهم إلى جناح العوائل. بعد أن جلسا، قال للعاملين

- دعوهما لي أنا سأتولى خدمتهما.

جلب لهما عبوات الماء البارد، واقترح عليهما أن يقدم إليهما حساء لذيذاً يُقدم للزبائن المتميزين قبل تناول المشاوي، إذا كانا يرغبان في ذلك.

قال "خالد":

- أنا أحب هذا "الحساء"، اجلبه لنا.

انتهى كل شيء بالنسبة إلى " ريان "، ونسي من يكون، فهو لم يعد يرى في هذه الحياة إلا تلك الذكريات الطافحة بالمذلة.

أعد لهما الحساء، وأخرج القنينة من مخبئها، ووزع السم عليهما بالتساوي وحينما اقترب منهما توقف قليلاً، تمعن في ظهر والدته التي كانت توليه له، وكاد أن يتوقف، على الرغم من كل شيء داخلته الشفقة، فهي أمه، إنّما في تلك اللحظة دفعته يد يتذكرها جيداً، وراحت طقطقة سرير والدته القديم تملأ رأسه، لم يعد يرى سوى تلك اليد التي أخذت أنيابها تطول وتنغرز في جسده دافعة إياه إلى الأمام، وسريراً يهتز هازئاً به، ابتسم في وجه خالد الذي كان ينظر إليه مستغرباً من تردده في تقديم مايحمله، اقترب منهما ووضع الأطباق أمامهما وقال:.

- تفضلا، هنيئاً مريئاً.

كانت تلك آخر كلمات ينطق بها، قبل أن يبتلعه الظلام.

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
2023